

ثالثاً: انتشار المذهب الصفري في بلاد المغرب وتحقيق هدف الدولة

وصل المذهب الصفري إلى بلاد المغرب مزامنة مع المذهب الإباضي إذ تشير بعض الروايات الإباضية إلى أن أول من جاء إلى المغرب يدعو إلى تلك المذاهب: سلمة بن سعيد يدعو إلى الإباضية وعكرمة مولى ابن عباس يدعو إلى الصفرية، وأشار إلى ذلك أبو زكريا في سيره وكذا الدرجيني في طبقاته.

وقد تمكّن عكرمة وهو مقيم في القيروان من الاتّصال بعناصر مهمّة، لها مكانتها وإشعاعها بين البربر من أمثال: ميسرة المطغري، رأس قبيلة مطغرة الذي اتّصل بعكرمة في القيروان متستراً بالسقاية، حتى لا يتفطن إليه أحد، طوال الفترة التي تلقى فيها أصول المذهب الصفري وكذا أبي القاسم سمكو بن واسول شيخ قبيلة مكناسة والذي أسّس مع عيسى بن يزيد الأسود دولة (بني مدرار الصفرية) في سجلماسة، كما استمال عكرمة أبي صالح طريف، كبير قبيلة برغواطة المصمودية الذي ساعد على إنشاء دولة مستقلّة (في بسائط تامسنا) مما يلي المحيط الأطلسي، والتي ظلّت تحمل العقائد الصفرية حتى القرن السادس الهجري.

وقامت هذه العناصر المرموقة بدور بارز في نشر الدعوة الصفرية بين قبائلها، وعلى ذلك فإن المذهب الخارجي الصفري تركّز أساساً في ربوع المغرب الأقصى، خصوصاً أجزاءه الجنوبية، كما انتشر في المغرب الأوسط وإفريقية.

واستغل ميسرة المطغري البربر المقتنعين بالمذهب والجماهير الغفيرة الناقمة عن الأمويين وولاتهم في المغرب ليعلن عن اندلاع الثورة سنة 122هـ (739م) بعد أن ذهبوا إلى دمشق، وأعرض الخليفة هشام بن عبد الملك عن مقابلتهم وسماع شكواهم، وعادوا مكسوري خاطر وبخيبة أمل مريرة، ورغم الانتصار الساحق الذي حققه البربر على الامويين إلا أن الأمور لم تستتب لميسرة حيث ثار عليه أتباعه وقتلوه، وولّوا مكانه خالد بن حميدة الزناتي الذي هزم جيش الأمويين برعاية واليهم عبيد الله بن الحبحاب حول وادي شلف، وكانت هزيمته قاسية لم يسبق لها مثيل، على الأقل في تاريخ المغرب، حيث أبيد الجيش عن آخره، وقتل في هذه الواقعة

(حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها). ولذا سميت "بواقعة أو غزوة الأشراف"، واهتزت الخلافة لهذه الفاجعة، فاضطرَّ الخليفة هشام إلى استدعاء ابن الحباب (123هـ . 740م) وتبليغه قرار عزله وتعويضه بكلثوم بن عياض القشيري القيسي مصحوباً بجيش مهمّ، وعند وصوله إلى إفريقية. قصد لتوّه جموع الثائرين، وفي الأثناء انتفض خوارج الصفرية في ناحية قابس بزعامة عكاشة بن أيوب النفراوي،

أمّا كلثوم فقد التقى بالحشود البربرية، بقيادة خالد بن حميدة الزناتي عند نهر "سُبُو" في موقع يقال له (بقدورة) بالقرب من مدينة "تاهرت" فانهمز الجيش الأموي أمام هذا الزخم الثوري الصفري وبصورة قاسية وشنيعة. فقتل ثلثه وأسر ثلثه الثاني، وطرد ثلث المهزوم وقتل قائده كلثوم وبعض القادة المرموقين.

ولم يهدأ بال الخلافة الأموية حتى بادر هشام بن عبد الملك في الحين، بتوجيه عامله على مصر حنظلة بن صفوان، إلى بلاد المغرب وقّده ولايتها ووصل صفوان إلى القيروان في سنة 124هـ (742م) على رأس جيش ضخم، وتزعم حركة الصفرية في هذا الوقت عكاشة بن أيوب السابق الذكر وعبد الواحد بن يزيد الهواري. فجمعا حشودهما بمنطقة الزاب، واستعاننا بصفرية زناته، بزعامة أبي قرّة المغيلي، ثم زحفا إلى القيروان في جيشين، أحدهما بقيادة عكاشة الذي سلك طريق "مجانة" وعسكر في القرن، بالقرب من القيروان. والآخر بقيادة عبد الواحد الذي سلك طريق الجبال جاعلاً على مقدمته أبا قرّة. وعسكر في موقع يقال له الأصنام، على مقربة هو الآخر من القيروان، ويقال إن جيشه يقدر بـ 300 ألف مقاتل.

وتوَّخي حنظلة تكتيكاً خاصاً، وهو أن يقابل الجيشين كلاً على حدة، وأسفرت النتيجة عن هزيمة عكاشة، ووقوعه في الأسر وقتله، كما أسفرت المعركة مع الجيش الثاني عن قتل عبد الواحد، وهزم الجيشان هزيمة نكراء، ويقال إن القتل في الصفرية بلغ 180 ألف قتيل، وكان هذا النصر الساحق في موقعتي القرن والأصنام مدعاة للبهجة والشعور بالارتياح، فقد ردّ الاعتبار وعوّض معنوياً عن هزيمتي الأشراف وبقدورة.

وفي عهد حبيب بن عبد الرحمان الفهري ظهر تحرك جديد للصفيرية، تقوده هذه المرة "ورفجومة" بزعامة عاصم بن جميل، وهي بطن من بطون نفزاوة، ومن غلاة الصفيرية، وتمكّن زعيمها من توحيد عشائر نفزاوة وبتونها، حتّى صيّر منها قوّة قادرة على غزو القيروان وعاث بربر ورفجومة فساداً في المدينة، ولم يتورعوا عن هتك الأعراض، والاعتداء على المقدّسات، أمّا حبيب بن عبد الرحمن فإنّه هزم بعد أن خرج لملاقاتهم، وفرّ إلى قابس، ومنها لجأ إلى الأوراس، وولّى عاصم بن جميل عبد الملك بن أبي جعد على القيروان، ليتفرّغ لملاحقة حبيب بن عبد الرحمن. وطارده واشتبك معه، وقُتل عاصم في جملة من أصحابه، وهو ما شجّع حبيب على استرداد القيروان، بما تجمّع لديه من أنصار، لكنّه قتل على يدي عبد الملك بن أبي جعد سنة 140هـ (757م). وبهذا تكون الصفيرية قد سيطرت على المغرب الأقصى، منذ واقعة الأشراف، وكذلك على عموم المغرب الأوسط، خاصّة بعد واقعة بقدورة، ثمّ إفريقية باستيلائها على القيروان، ولم يبق خارج عنها إلّا المغرب الأدنى وجزء من المغرب الأوسط.

ولم تتمتع الصفيرية بهذا الانتشار لنفوذها طويلاً حتى هبّ إباضية طرابلس تحت قيادة إمامها أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري لإنقاذ القيروان من عبث ورفجومة التي اقتحموها عنوة، وقتلوا عبد الملك، وطردوهم منها، وولى عليها أبو الخطاب زميله عبد الرحمن بن رستم أحد حملة العلم عند الإباضية، وذلك سنة 141هـ (758م). وكان انحسار النفوذ الصفيري عن إفريقية تجاه منطقة "تلمسان" وإقليم "تافيلالت".

ففي تلمسان، تزعم الصفيرية أبو قرّة المغيلي وكان ذا شوكة ونفوذ، شمل المغرب الأقصى والأوسط، وقد اتخذ من طنجة في الأول وتلمسان في الثاني قاعدتين له. وفي سنة 148هـ (745م) بوبع أبو قرّة بالخلافة، وأخذ يعدّ العدة للزحف على القيروان، بجيش كثيف من البربر الزناتيين، ولكن الأغلب بن سالم الوالي العباسي، بادر بالخروج إليه وانتهى إلى الزاب، فعدّل أبو قرّة عن الالتحام، وتراجع إلى طنجة. وفي هذه الفترة تكوّنت ما يشبه الإمارة الصفيرية، والتي كانت

تحت ملاحقة الوالي العباسي الجديد، عمر بن حفص فلم تهدأ أحوالها أبدا وضعت قواها وانهارت تماما في عهد يزيد بن حاتم سنة (155هـ / 772م) حيث تمت تصفية الوجود الصفري في المغرب الأوسط وفي إفريقية، وقد قضى يزيد على آخر تحرك لهم في منطقة الزاب سنة (164هـ / 780م).

أما المنطقة الصفرية الثانية فهي إقليم (تافيلالت) الواقعة في المنطقة الصحراوية في جنوب المغرب الأقصى. وتوطن في هذه النواحي مكناسة التي اعتنقت الإسلام على مذهب الصفرية، وكان من رؤساء الصفرية عيسى بن يزيد الأسود، من موالي العرب أحد أقطاب المذهب في هذه النواحي، ولكن أبا القاسم سمكو بن واسول المكناسي، تلميذ عكرمة السابق الذكر، كان أعظم منه شأنًا، وبعد المشاركة في ثورة ميسرة المطغري، اختفى عن مسرح الأحداث، وتحديث الروايات عن توجهه إلى إقليم (تافيلالت) والقيام بنشره المذهب الصفري بين القبائل هناك.

وبحلول سنة (140هـ / 757م) بايع أبو القاسم سمكو عيسى بن يزيد الأسود، بصفته إماما للصفرية. وحمل قبيلته مكناسة على طاعته، فبادر هذا الأخير بتخطيط مدينة "سجلماسة" وبنائها. وصارت عاصمة لأول دولة صفرية سميت بدولة مدرار، ويسمّيها ابن خلدون أيضاً (دولة بني واسلو).

ولم يلبث الأتباع وخاصة من مكناسة أن نقموا عليه، وعزلوه، وشدّوا وثاقه إلى شجرة بحبل، وتركوه حتى هلك سنة (155هـ / 772م). وخلفه أبو القاسم سمكو، وظل الأئمة من نسله محصورين في آل بيته، حتى سقطت هذه الدولة تحت وطأة الزحف الشيعي سنة (297هـ / 909م) واندثر معها المذهب الصفري ولم يبق له أي وجود بالمغرب وحتى بغيره من مناطق العالم الإسلامي الأخرى.

المصادر والمراجع المعتمدة للمحاضرة الثانية

- 1- ابن الصغير (القرن 3هـ / 9م): أخبار الأئمة الرستمين،
- 2- أبو زكريا يحي الوارجلاني: سير الأئمة وأخبارهم.
- 3- الوسياني : السير، ج 1.

- 4-الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج1.
- 5-محمود اسماعيل عبد الرازق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري.
- 6-بحاز إبراهيم: الدولة الرستمية.
- 7-ابن عميرة محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي
- 8-البكاي لطيفة: حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي (37-132هـ)،
- 9-ألفرد بال: الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي.
- 10- الموسوعة التاريخية: موقع الدرر السنيّة: المشرف العام علي بن ع القادر السقاف. موقع انترنيت
- 11- رستم سعد: الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات (النشأة، التاريخ، العقيدة ،التوزيع الجغرافي)،
- 12- الزاوي الطاهر أحمد: تاريخ الفتح العربي في ليبيا،
- 13- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري
- 14- عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بافريقية إلى قيام الدولة الزيرية.
- 15- فولهوزن يوليوس: أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام؛ الخوارج والشيعه
- 16- معمر علي يحي: الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كُتاب المقالات في القديم والحديث